مايكل روبرتس*: آدم سميث بعد 250 عامًا

ترجمة: مصباح كمال**

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس بتاريخ 14 آذار 2026 تحت عنوان: Adam Smith: 250 years
Adam Smith: 250 years – Michael Roberts Blog

قبل 250 عامًا من هذا الأسبوع،[1] نشر آدم سميث كتابه **بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم**[2]—وبذلك اخترع علم الاقتصاد. يتألف الكتاب من خمسة "كتب" تمتد على أكثر من ألف صفحة، ويُعدّ بحق "العهد القديم" للاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بينما يمثّل كتاب ديفيد ريكاردو **مبادئ الاقتصاد السياسي**[3] (1819) "العهد الجديد".

أصبح آدم سميث لاحقًا المرجع الأعلى لفكرة ***دعه يعمل، دعه يمر*** 'laisser-faire'، أي اقتصاد السوق الحر. وقد تبنّى اقتصاديون من مدرسة شيكاغو مثل جورج ستيغلر وميلتون فريدمان أفكاره بوصفه الأب الروحي لنظريتهم في "السوق الحرة". كما احتفى به سياسيون يمينيون مثل مارغريت تاتشر، واستلهموا منه سياسات تقليص دور الدولة وترك السوق يقرّر كل شيء. وينظر اقتصاديون عالميون من مدرسة هايك والنمساويين إلى سميث بوصفه الأساس الفكري لمقاربتهم. بل إن هناك مركز أبحاث بريطانيًا يحمل اسمه، يروّج لسياسات اقتصادية قائمة على "مبادئ السوق الحرة، وشعاره: استخدام الأسواق الحرة لصنع عالم أكثر ثراءً وحرية وسعادة".[4]

[1] 250 years ago
[2] An Inquiry Into the Nature and Causes of the Wealth of Nations
[3] Principles of Economics
[4] a 'think-tank' based in the UK

أشهر مقولات سميث في **ثروة الأمم** هي عن "اليد الخفية للسوق:

> إن كل فرد... لا يقصد عادةً أن يخدم المصلحة العامة، ولا يعرف إلى أي مدى يخدمها... إنه يقصد فقط مصلحته الخاصة؛ لكنه، بتوجيه نشاطه بحيث يحقق أعلى قيمة ممكنة، إنما يسعى فقط إلى مكسبه الخاص، ومع ذلك فهو يُقاد—كما في حالات كثيرة أخرى— بيد خفية لتحقيق غاية لم تكن جزءًا من قصده.

يرى سميث أن سعي كل فرد وراء مصلحته الاقتصادية يؤدي، من دون قصد منه، إلى نتيجة أفضل للجميع. وخلف هذا الطرح تكمن بصيرته الكبرى: أن الصناعة الحديثة تقوم على **تقسيم العمل**. فعندما يُقسَّم إنتاج السلعة إلى مهام متخصصة بدل أن يقوم العامل بكل شيء، ترتفع الإنتاجية وتنخفض التكاليف والأسعار. يشرح سميث فوائد تقسيم العمل في الإنتاج الرأسمالي، بينما يكشف ماركس جانبه المظلم: اغتراب الإنسان وتحويل العمل الخلّاق إلى شقاء ورتابة.

بالنسبة لسميث، فإن المنافسة بين الأفراد في السوق تؤدي إلى نتائج نافعة للجميع. ومن هنا جاءت فكرته الشهيرة:

> الاستهلاك هو الغاية الوحيدة لكل إنتاج؛ وينبغي الاهتمام بمصلحة المنتج فقط بقدر ما يخدم مصلحة المستهلك.

هذا هو الأساس الكلاسيكي للاقتصاد النيوكلاسيكي الحديث، القائم على أسطورة "سيادة المستهلك". لكن ماركس بيّن لاحقًا أن **الإنتاج** هو السيد الحقيقي، أو بالأحرى أن ملكية وسائل الإنتاج الخاصة هي التي تمنح الرأسماليين القدرة على تشغيل العمال الذين لا يملكون شيئًا، لإنتاج السلع من أجل الربح.

كان سميث معارضًا بشدة للاحتكارات التي كانت شائعة في عصره، وغالبًا ما كانت مرتبطة بدولة ملكية فاسدة. كان يرى أن الاحتكارات تدمّر الصناعة وتخنق المبادرة وتقلل الإنتاجية والازدهار. كما عارض المذهب التجاري (الميركنتالية) الذي يقوم على حماية الصناعات الوطنية وتكديس الفوائض بدل توسيع التجارة. وقد شرح لماذا تكون الحمائية دائمًا خاسرة. وكتب ساخرًا:

> يمكن، باستخدام البيوت الزجاجية والجدران الساخنة، إنتاج عنب جيد في اسكتلندا، بل وصنع نبيذ جيد منه، ولكن بتكلفة تعادل ثلاثين ضعف تكلفة استيراد نبيذ مماثل من الخارج. فهل سيكون من المعقول سنّ قانون يحظر استيراد النبيذ الأجنبي فقط لتشجيع إنتاج الكلاريت Claret والبورغندي Burgundy[5] في اسكتلندا؟

قد يكون **ثروة الأمم** قد جعل من سميث "أبا الاقتصاد السائد" القائم على الأسواق الحرة من تدخل الدولة والاحتكارات والنقابات. لكنه كتب قبل ذلك كتابًا آخر عام 1759 بعنوان **نظرية المشاعر الأخلاقية**. ومن يقرأ الكتابين معًا يدرك أن سميث لم يكن داعية متطرّفًا للسوق الحرة، ولا منكرًا لدور الدولة، ولا مؤمنًا بأن السلوك البشري تحركه المصلحة المادية وحدها. هذه صورة صنعها أنصار السوق الحرة اليوم، لا سميث نفسه. وقد لخّص الاقتصادي جاكوب فاينر Jacob Viner (من مدرسة شيكاغو في عشرينيات القرن الماضي) موقف سميث بقوله:

> آدم سميث لم يكن مدافعًا عقائديًا عن مبدأ دعه يعمل، دعه يمر. فقد رأى أن للحكومة مجالًا واسعًا ومرنًا من الأنشطة التي يمكن أن تضطلع بها، وكان

[5] "كلاريت" مصطلح إنجليزي يُطلق تحديدًا على النبيذ الأحمر من منطقة بوردو الفرنسية (وخاصةً مزيج من اعناب كابرنيه ساوفيجنون/ميرلو)، ويتميز بنكهة الكشمش الأسود، وقوامه المتماسك، ونسبة التانينات tannins العالية (العفص/العفصات: المركّبات القابضة الموجودة في الشاي، والقهوة، والنبيذ، وبعض النباتات). أما "بورغندي" فيشير إلى النبيذ الأحمر من منطقة بورغندي، المصنوع بالكامل تقريبًا من عنب بينو نوار، ويتميز عمومًا بلونه الفاتح، وحموضته العالية، ونسبة التانينات المنخفضة. (المترجم، الهامش منقول من الإنترنيت)

مستعدًا لتوسيعه أكثر إذا ما حسّنت الحكومة معايير الكفاءة والنزاهة والروح العامة، وأظهرت استعدادًا لتحمّل مسؤوليات أوسع. وقد كرّس جهدًا أكبر لعرض حججه في الدفاع عن الحرية الفردية أكثر من استكشاف إمكانات الخدمة التي يمكن أن تقدّمها الحكومة.

ومع ذلك، أدرك سميث أن المصلحة الذاتية والمنافسة قد تكونان في بعض الأحيان خادعتين للمصلحة العامة التي يُفترض بهما خدمتها، وكان مستعدًا للاعتماد على الحكومة في أداء العديد من المهام التي لا يستطيع الأفراد القيام بها، أو لا يقومون بها، أو لا يحسنون القيام بها. لم يكن يعتقد أن مبدأ دعه يعمل، دعه يمر جيد دائمًا أو سيئ دائمًا؛ فالأمر يعتمد على الظروف. وبقدر ما استطاع، حاول آدم سميث أن يأخذ في الحسبان كل الظروف التي أمكنه رصدها.

كان سميث أيضًا معارضًا قويًا للعبودية، وكتب:

ليس هناك زنجي واحد من سواحل إفريقيا إلا ويملك من السموّ النفسي ما لا يكاد سيده الحقير يتصوّره. لم تمارس المصادفة قسوتها على البشر أكثر من إخضاع أمم من الأبطال لحثالة سجون أوروبا.

كان ماركس قارئًا دقيقًا لثروة الأمم. وقد اعترف بإسهام سميث في محاولة تطوير نظرية للقيمة قائمة على العمل. يقول سميث:

العمل وحده، الذي لا تتغير قيمته، هو المعيار الحقيقي الذي تُقاس به قيمة جميع السلع في كل زمان ومكان.

لكن ماركس انتقد سميث لتناقضه، إذ عاد الأخير إلى نظرية "عوامل الإنتاج"—الريع والرأسمال والعمل—بدل الالتزام بأن **العمل وحده** هو مصدر القيمة، وأن الرأسماليين والملّاك يستحوذون على فائض القيمة. لقد أصبحت نظرية عوامل الإنتاج هي السائدة في الاقتصاد الحديث، بينما أُهملت نظرية القيمة-العمل. يقول ماركس:

تكمن أهمية تناقضات آدم سميث في أنها تكشف مشكلات لم يحلّها، لكنها تظهر من خلال تناقضه. وقد استند خلفاؤه إلى جانب من تعليمه أو الآخر. **نظريات فائض القيمة**، الجزء الأول، ص151.

في الواقع، لم يكن آدم سميث مؤيدًا ثابتًا للتجارة الحرة. فقد تأثر موقفه بحالة الاقتصاد البريطاني آنذاك. أيد قوانين الملاحة Navigation Acts - التي نظمت التجارة والشحن بين إنجلترا ومستعمراتها ودول أخرى - على الرغم من أن هذه القوانين كانت تلزم بنقل البضائع على متن السفن البريطانية حتى لو كانت هناك خيارات أخرى أرخص. كتب في كتابه ثروة الأمم: "الدفاع أهم بكثير من الثراء". لم يكن وصف سياسات الأمن المرغوبة بأنها "حمائية" هو بيت القصيد. ففي نهاية المطاف، كان أمن الدولة الرأسمالية وبقاؤها أهم من السوق الحرة في التجارة الدولية. هذه رسالة مناسبة للوقت الراهن حيث بات "الدفاع" عن الدولة الإمبريالية الأمريكية يتقدم حتى على ربحية رأس المال العالمي.

ستُعاد مناقشة الأفكار التي طرحها سميث قبل 250 عامًا هذا الصيف في **مؤتمر الرابطة العالمية للاقتصاد السياسي** في لندن.[6]■

* اقتصادي ماركسي بريطاني.
** كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
http://iraqieconomists.net/ar/

[6] World Association for Political Economy conference in London.